فقه خديجة
وأخلاق النبوة في البناء
«١»

الفكر السليم الذي يتجاوز الحدود زماناً ومكاناً، وهو ما نجده في منهج البناء القويم، كما هو في معالم الكتاب العزيز وبيانها من سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام.

هذا الفكر ـ من حيث استناده إلى قاعدة الإيمان السليمة ـ لا يعدو عليه الفاصل الزمني مهما بلغ من القرون؛ فهو قادر على العطاء دائماً إذا سلمت النيات وصدقت العزائم في ظل المعرفة والوعي.

وعلى هدي هذه المقولة: تبدو النماذج التطبيقية لهذا الفكر، وهي ذات أثر فعَّالٍ في الحاضر، كما كانت ذات أثر فعَّال في الماضي.

ومن أجل ذلك: كانت لنا وقفة مع واحدة من صور الوعي عند المرأة المسلمة التي أُحكم بناؤها على الإسلام، وذلك فيما رأينا من تفسير عائشة رضي اللّه عنها للخلق العظيم الذي عنته الآية الكريمة في قوله تعالى:﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ وذلك واضح عنها من القول، بأن خلق رسول اللّه ﷺ هو القرآن. ومن هنا وصفه اللّه بالعظمة، وكان ذلك في وقت مبكر من عمر الدعوة إذ جاء ذلك في العهد المكي، وكانت السورة مكية، وهي سورة القلم.

والحديث عن هذا الوعي الذي نشأ وتنامى على طريق التغيير لما كانت عليه المرأة في الجاهلية إلى واقع جديد يتسق مع فطرتها وتكوينها كما خلقها اللّه،

ويضعها في موضع المسؤولية يقودنا إلى واقعة أخرى من الوعي ـ وما أكثر هذه الوقائع ـ نجدها في تاريخ خديجة رضي اللّه عنها، كانت مبكرة أكثر في عمر الدعوة؛ لأنها في أعقاب ما فجأ النبي ﷺ من الوحي أول مرة.

فالأمر من الناحيتين التاريخية وطبيعة الواقعة نفسها مختلف في هذه الواقعة عن سابقتها بعض الشيء؛ إذ إن عائشة رضي اللّه عنها أدركت بنفاذ بصيرتها ووعيها المستنير لطبيعة الرسالة وما كان عليه رسول اللّه ﷺ أن أخلاقه صلوات اللّه عليه صورة عملية للقرآن امتثالاً لأوامره واجتناباً لنواهيه، ووقوفاً عند حدوده، في كل ما جاء به، قولاً وعملاً وقدوة، في خاصة نفسه وفي أهله وبيته، وفي تعامله مع المسلمين، ونصحه للأمة.

أما خديجة رضي اللّه عنها: فقد كانت على مثل الجبال الرواسي يقيناً بأن الرسول عليه الصلاة والسلام ـ بما يتسم به من أخلاق كريمة وسمو لا يُجارى في السلوك ـ لن يخزيه اللّه أبداً.

الأخلاق وحدها جعلتها تحكم أن عدالة اللّه تتنافى مع أن يضام من يتصف بما اتصف به محمد بن عبد اللّه.

قررت ذلك قبل أن تعلم حقيقة ما سيكون عليه رسول اللّه ﷺ، ولا المهام التي تنتظره على أرض التاريخ.

كان ذلك يوم عاد إليها رسول اللّه ﷺ بعد أن فجأه الوحي كما روى الشيخان وغيرهما. بغار حراء، وعاد إليها - صلوات اللّه وسلامه عليه - يرجف فؤاده، فدخل عليها فقال: «**زمِّلوني زمِّلوني**»، فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوع، فقال لخديجة رضي اللّه عنها وأخبرها الخبر: «**لقد خشيت على نفسي**»، فقالت له خديجة: كلا واللّه ما يُخزيك اللّه أبداً إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق..

هذا ما كان من خديجة وقد خاف رسول اللّه ﷺ على نفسه من هول المفاجأة «كلا واللّه ما يخزيك اللّه ـ أو ما يحزنك اللّه أبداً ـ وذكرت من أخلاقه أنه يصل الرحم، ويحمل الكلَّ ويكسب المعدوم، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق» وهي صفات من بعض مكارم أخلاقه عليه الصلاة والسلام.

إن خديجة رضي اللّه عنها بحصافتها البالغة ومكانتها في قومها لم تكن غافلة عما كان يضج به المجتمع الجاهلي بالمساوىء وكبير الجفوة بين بني قومها وبين الحنيفية السمحة ملة أبيهم إبراهيم، والانحراف ـ في كثير من الأحيان ـ عما تقتضيه مكارم الأخلاق.

من أجل ذلك تطلع علينا الحقيقة التي طرحتها ـ عليها الرحمة والرضوان ـ وهي أن أخلاق رسول اللّه ضمانة أيُّ ضمانة ضد الأذى والخزي، فضلاً عما خافه على نفسه ﷺ؛ فحاشا للّه وهو الحكيم الخبير سبحانه أن يخزي من له هذه الأخلاق.

ولعل من الخير أن نورد النص بكامله فيما نستقبل من الكلام إن شاءاللّه، كيما نستزيد من عطاء المعلم القرآني في واحدة من جوامع الكلم في القرآن الكريم وهي قوله تعالى مسلياً نبيه ﷺ دالاً أمته على باب من أوسع أبواب القوة والتمكين ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ وكيما نستضيء بواحدة من مكارم خديجة ونحن نتطلع إلى بناء متجدد للفرد والمجتمع وتنمية طاقات الأمة.

* * *

البناء... وأخلاق النبوة
وفقه خديجة المبكر
«٢»

البيان الجامع الذي دل على ما بلغته عائشة رضي اللّه عنها من رفيع المستوى وعياً وفقهاً لطبيعة الرسالة والمنهج الأخلاقي للرسول ومدى الصلة بينهما.. والذي كشف للأمة عن سر العظمة التي وصف اللّه بها خُلُق رسول اللّه ﷺ في قوله جل شأنه خطاباً له عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ وذلك بقولها: «كان خلقه القرآن»... هذا البيان المتميز الذي بدا صورة عن الإحكام في بناء المسلم ذكراً كان أو أنثى، قادنا إلى موقف من مواقف خديجة رضي اللّه عنها الذي يكاد يكون عديم النظير في تاريخ الدعوة إلى اللّه وثقل العبء فيها؛ إذ شهدت بحصافة بالغة مشرقة، وبصيرة متفتحة، وعقل مستنير، أول خطوة خطاها رسول اللّه ﷺ وهو يسلك طريق البناء على هدي المنهج الرباني، بعد أن فجأه الوحي بغار حراء وقد راعه ذلك شديد الروع حتى خاف على نفسه، وتنزلت عليه الآيات الخمس الأُوَل من سورة العلق وهي قول اللّه تبارك وتعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾.

ونحن اليوم على موعد مع القصة بكاملها كما وردت في الصحيح عن عائشة رضي اللّه عنها حيث أخرجها أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم، وكان التاريخ فيها على موعد مع الكشف عن عظمة خديجة رضي اللّه عنها.

ولفظ البخاري كما جاء في «الجامع الصحيح» ما روى بسنده عن ابن شهاب الزهري عن الزبير عن عائشة أم المؤمنين رضي اللّه عنها أنها قالت: أول ما بدىء به رسول اللّه ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم وفي رواية لمسلم: الرؤيا الصادقة

في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثلَ فَلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاءُ، وكان يخلو بغار حراء ـ فيتحنثُ فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذواتِ العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزودُ لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها.

حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: **ما أنا بقارىء**، قال: «فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجَهدَ، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطَّني الثانيةَ حتى بلغ مني الجَهدَ، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطَّني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥** ﴾.

فرجع بها رسول اللّه ﷺ يرجُف فؤادُه، فدخل على خديجة بنتِ خويلد فقال: **«زمِّلوني زمِّلوني»**، فزملوه حتى ذهب عنه الروع؛ فقال لخديجة وأخبرها الخبر: **«لقد خشيت على نفسي»**. فقالت له خديجة: «كلا واللّه ما يخزيك ـ أو ما يخزيك اللّه ـ أبداً إنك لتصل الرحمَ، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق».

ولنا عودة ـ إن شاء اللّه ـ إلى هذه الواقعة العظيمة نتبين من خلالها بعض الأبعاد التي تفيض بها وتشرق، لنرى ـ مع حقيقة أن محمداً ﷺ رسول من عند اللّه يوحى إليه ـ كيف أن خديجة رضي اللّه عنها كانت نعم العون من أول يوم عُهد فيه إلى رسول اللّه ﷺ بأمانة البناء، بناء الإنسان والحياة وتنمية الطاقات الفاعلة بعيداً عن أوضار الجاهلية كما أراد خالق الإنسان والكون والحياة.

وهكذا أدلت بدلوها عليها الرحمة والرضوان حصافةً، ورجاحة عقل وجزالة رأي، وكانت نعم القوة المسعفة في مشقات ما أكرم به ﷺ مع الريادة وتحمل أعباء البناء في ظروف كانت الإنسانية تعاني من شدتها ما تعاني، وترتقب الفجر بعد ليل عم ظلامه حتى بُعث محمد بن عبد اللّه عليه الصلاة والسلام، وآذن التاريخ بفجر جديد.

* * *

أخلاق النبوة... والبناء
وكلمات خديجة من أول يوم
«٣»

هذه متابعة بما العهد به قريب من كلمات خديجة رضي اللّه عنها يوم عاد إليها رسول اللّه ﷺ يرجف فؤاده بعد أن فجأه الوحي، وأشرق في صدره نور الحق، وتنزل عليه قول اللّه تبارك وتعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١-٥].

أجل، لقد رجع رسول اللّه ﷺ في ذلك الوقت الذي كان مبتدأ إكرامه بالرسالة الخاتمة، بعد أن غطّه الملك ثلاثاً ـ كما ثبت في الصحيح ـ يرجف فؤاده، وفي رواية لمسلم: «ترجف بوادره» - وهي بين المنكب والعنق - تضطرب من الفزع.

ومن الواضح أنه عليه الصلاة والسلام، لم يُخفِ ذلك، ولم يتظاهر بغيره؛ فقد قال بعد أن دخل على زوجه العاقلة الحانية المتميزة بحصافتها وسلامة تفكيرها: **«زملوني زملوني»** حتى ذهب عنه الروع، فقال لها ـ رضي اللّه عنها ـ وأخبرها الخبر العظيم: «لقد خشيت على نفسي».

وهنا، أمام هذه الحال التي كان عليها سيد العالمين وإمام المرسلين محمد عليه الصلاة والسلام، دونما غفلة عن حقيقة الواقع الأليم الذي كانت عليه الجاهلية من حول ذلك البيت الكريم، قالت رضي اللّه عنها: «كلا واللّه ما يخزيك اللّه أبداً» وفي رواية: ما يخزيك اللّه أبداً.. دون قسم.

إن ثقة خديجة بما تقول، تقديراً حقيقياً منها للسمو الخلقي الذي كان يتمتع به رسول اللّه ﷺ، والذي يرتدُّ إلى مكارم الأخلاق التي كان يتحلّى بها عند التعامل مع الآخرين: جعلها تبدأ به «كلا» الكلمة التي تفيد النفي والإبعاد..

بل دلت بعض الروايات، على أنها قابلت الخوف الذي اعترى زوجها العظيم محمداً عليه الصلاة والسلام، وهي تدرك من عظمته من خلال الحياة المشتركة ما تدرك.. قابلت ذلك الروع ـ مع كلمة كلا ـ بالبشارة تزفها إليه بأن اللّه لن يخزيه أبداً، وكأنها تقول: مما يتنافى مع العدل الإلهي ـ وحاشا للّه ذلك ـ أن يصيبك الخزي وأنت على هذه الحال من كريم الأخلاق، وحميد الصفات، التي كان الجميع ـ حتى أعداء دعوته ـ لا يمارون فيها من بعد.

ففي رواية مسلم: «كلا أبشر فواللّه لا يخزيك اللّه أبداً».

لقد أرادت ـ رضي اللّه عنها وأرضاها ـ أن تبعد أي خاطرة سوء عن الواقعة، وعبرت عن ذلك تعبيراً يحمل منتهى اليقين والجزم حين قالت: «كلا»، بل طلعت على الدنيا بما رأته برجاحة عقلها، وصفاء نفسها، عنوان خير وتكريم لهذا الزوج المبارك عليه الصلاة والسلام؛ فبشرته ـ بالأسلوب نفسه ـ بأن اللّه لن يخزيه أبداً.

هكذا بعد الروع الذي كان يعتريه صلوات اللّه وسلامه عليه، يكون منها النفي الجازم لأي لون من ألوان المضرَّة والسوء، والبشارة العظيمة بالخير الوفير.

والذي دلَّ ـ أعظم الدلالة ـ على رجاحة عقلها ـ كما أسلفت ـ واستنارة فكرها وصفاء نفسها: ما علَّلت به هذا الذي جزمت به حين قالت باللَّهجة الحاسمة المتفائلة التفاؤل كله، مصدرة ما تقوله بالقسم: «واللّه إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق». هذه رواية البخاري، وزاد مسلم: «تصدق الحديث»...

إنها خصال سبع، كل واحدة منها: عنوان مشرق واضح على مكارم الأخلاق، فما بالك وقد اجتمعت كلها منقادة لسلوك المصطفى عليه الصلاة والسلام، لا تبرح هذا السلوك بحال؟!.

لقد أحسنت ـ أعلى اللّه مقامها في الآخرين ـ إحكام الربط بين المقدمة والنتيجة؛ فمن كان على هذه المكارم المشرقة من الأخلاق، والسمو الذي لا يجارى في مجتمع يلفه ظلام الجاهلية ـ على ما كان من بعض الأخلاق الكريمة هنا وهناك ـ ويعبث في أرجائه الهدم والهدامون.. محال أن يخزيه اللّه؛ فليس من العدل مقابلة الإحسان بالإساءة، واللّه تبارك وتعالى منزه عن كل ما يتنافى مع صفات الكمال المطلق؛ فله ـ جل شأنه ـ الصفات العلى والأسماء الحسنى، ولا يظلم ربك أحداً.

إنه ـ جل شأنه ـ يريد من عباده أن يصلوا الرحم، ويصدقوا الحديث، ويحملوا الكلَّ، ويكسبوا المعدوم، ويقروا الضيف، ويعينوا على نوائب الحق.

وتلكم من أهم العوامل في تماسك المجتمع، وتحقيق الوجود الذاتي للإنسان الذي كرَّمه اللّه تعالى وخلقه في أحسن تقويم، و رسول اللّه ﷺ كان يفعل ذلك كلَّه، سجيَّةً ودون تكلف.

وإذن؛ فالبشارة من خديجة ـ بعد نفي ضدها ـ تأتي في موقعها الطبيعي بعد تلكم المقدمات، وكما ألهمت أن تعبر عن ذلك بكل وضوح!!

وعلى هذا: فما حصل لمحمد عليه الصلاة والسلام في الغار: عنوان جديد على فضل من اللّه تبارك وتعالى، له ما بعده.. وقد كان ذلك ـ والحمد للّه ـ وسعدت الإنسانية بالإسلام الذي أوحي به إليه صلى اللّه وسلم وبارك عليه!

وبعد: فكيف ننسى ما كان لهذا الموقف الرائع العظيم الذي شرُف التاريخ بتسجيله، من خديجة عليها الرحمة والرضوان ـ ضمن الظروف المعروفة والملابسات ـ من شدٍّ لأزر النبي ﷺ، وكريم معاونته في أول مرحلة من مراحل العهد الجديد، عهد ائتمانه على الرسالة الخاتمة ـ والدنيا تمور بالوثنية، وظلام الخرافة، والعدوان على الإنسان وعقل الإنسان ـ ؟!!

وكان مقتضى هذا الائتمان: تحميله أمانة التبليغ، وبذل الجهد الجاهد في إنشاء واقع جديد لإنسان الجزيرة العربية، ثم من وراءه على ظهر هذا الكوكب، بعد أن عم الظلام وطمَّ، فمن وثنية معلنة إلى وثنية مقنعة عند الكتابيين الذين يزعمون أنهم على هدي كتابهم المنزل، إلى فوضى لا يستقيم معها نظام، ولا أثارة من عدل عند أهل النفاذ والنفوذ، حتى إنك لو قررت أن أرجاء الأرض كلها كانت تترقب نوراً يزيل الظلمات، ما عدوت الحقيقة.

وصدَق ما ألهمته خديجة، وتتابع الوحي وحمي، وبدأ نور كلمة التوحيد يزيح بإشراقة ظلام القرون، ويرسم منهج التحويل لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وذلك بإخراج الناس من عبادة العباد، والأنداد والأضداد إلى عبادة اللّه الواحد، وكان ذلك إيذاناً بأن عهداً جديداً تعاد للإنسان فيه إنسانيته وحريته وكرامته، قد بدأ بما أوحي به إلى محمد بن عبد اللّه زوج خديجة بنت خويلد عليها من اللّه الرضوان.

* * *

البناء.. وقراءة التاريخ
وخديجة رضي اللّه عنها

«٤»

قراءة التاريخ قراءة واعية وفق منهج سليم للتحليل التاريخي: تعين على سلامة التدبر للوقائع وما تحمل من عظات وعبر، كما تثمر الإدراك المتبصر لطبيعة الترابط بين المقدمات والنتائج التي تسير وفق سنن اللّه التي لا تتحول ولا تتبدّل..

ناهيك عما تحققه من فقه للمقومات الأصلية التي ازدانت بها مسالك من أسهموا في صناعة ذلك التاريخ، وكان الواحد منهم ـ كائناً ما كان الثغر الذي أقامه اللّه عليه ـ ترجماناً عملياً في حركته وسلوكه للقيم التي قام عليها بأحداثه ومشاهده، في شتى الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية وما إليها، وشاهداً أميناً واعياً للعصر الذي عاش فيه.

وهذه القراءة المعنية في حديثنا تبدو اليوم واللّه أعلم ـ أكثر من أي وقت مضى ـ ضرورة من ضرورات البناء، وتنمية الطاقات الفاعلة المثمرة عند الجيل المرشح للتغيير، في إفادة واعية من ثمرات التطور العلمي وغيره، وثبات على القيم التي كانت بها أمة الإسلام خير أمة أخرجت للناس، وإعداد الفرد ـ ذكراً كان أو أنثى ـ كيما يكون أهلاً لهذه القراءة المتميزة من البدهيات التي يجب أن تكون في حسبان المؤتمنين على التثقيف والتربية والإعداد!

أسوق هذه الكلمات وأنا بسبيل مواصلة الحديث عما وقفنا عليه المعلم القرآني من دلالات مضيئة معلِّمة لقوله تعالى في فواتح سورة القلم خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ ثم ما أسعدنا به موقف خديجة

رضي اللّه عنها، ساعة رجع رسول اللّه ﷺ من غار حراء يرجف فؤاده، وقد خشي على نفسه من هول المفاجأة، حيث قالت: «كلا واللّه ما يخزيك اللّه أبداً» أو «كلا أبشر فو اللّه لا يخزيك اللّه أبداً».

هذا الموقف الذي كان المحور فيه ما تعلم حقَّ العلم، من مكارم أخلاقه عليه الصلاة والسلام، وتعاليه على سفاسف الأمور، والمنهج الذي درج عليه في التعامل معها، ومع الآخرين.

وإنه لعطاء جزل في بناء المرأة المسلمة تحققه ـ بلا ريب ـ القراءة المومى إليها، لموقف هذه السيدة التي تتصدر فضليات التاريخ، وما دل عليه من حصافة حكيمة، وجزالة في الرأي وبصيرة في ربط النتائج بالمقدمات في ظل الإيمان بعدالة اللّه المطلقة ورحمته بعباده.

ومن ذا الذي ينكر ما كان لهذا العطاء من أبعاد في شد أزر النبي ﷺ في تلك الساعات المثقلة بالترقب ومعاونته في تحمل أعباء المهمة الفريدة التي أؤتمن عليها، وهو يواجه جاهلية باضت وفرَّخت، حتى السلطان الذي لا يكاد ينازع للوثنية والظلم والخرافة، وكل ما فيه العدوان على إنسانية الإنسان والوقوف في وجه البناء السليم المحكم لهذا الإنسان، وللمجتمع الذي يكون هو إحدى لبناته.

لقد تنزل القرآن في العهد المكي بقوله تعالى في فواتح سورة القلم: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ ولكن العلماء استوقفهم من خديجة رضي اللّه عنها ذلك الموقف الذي اتسم بنفاذ البصيرة وجزالة الرأي حين دفعتها أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام إلى الحكم الذي جزمت به والوقفة الصادقة بجانبه صلوات اللّه وسلامه عليه. جاء في كلام الإمام النووي حول هذا الموقف المشار إليه: قال العلماء رضي اللّه عنهم: (معنى كلام خديجة رضي اللّه عنها أنك لا يصيبك مكروه لما جعل اللّه فيك من مكارم الأخلاق وكرم الشمائل. وذكرت ضروباً من ذلك. ثم أردف ذلك

بقوله: وفي هذا دلالة على أن مكارم الأخلاق وخصال الخير سبب السلامة من مصارع السوء. إلى أن قال رحمه اللّه: وفيه تأنيس من حصلت له مخافة من أمر وتبشيره. وذكر أسباب السلامة له. وفيه أعظم دليل وأبلغ حجة على كمال خديجة رضي اللّه عنها وجزالة رأيها وقوة نفسها، وثبات قلبها، وعظم فقهها).

حين تذكر عائشة وخديجة ومن سار على طريقهما وعياً واستمساكاً بأهداب الحق لا يبتغى من وراء ذلك تمضية الوقت وتزجية الفراغ، ولكنها أمانة الإسهام في الدلالة على تكلم المعالم التي صنعت تاريخ خير أمة أخرجت للناس وموقع المرأة المسلمة التي تربت على العقيدة وإدراك ما تعنيه مسؤولية التكليف وخطابها بأمور الرسالة، موقع هذه المرأة في صناعة تاريخنا لا ينكره إلا مكابر فهل تكون أسوتنا عند البناء والإعداد: أولئك اللواتي تفخر بهن حضارة الإسلام، ننمي الاعتزاز بهن وصدق العزيمة في استئناف الطريق التي سلكنها ببصيرة وثبات..

* * *

اللّه أعلم حيث يجعل رسالته
أخلاق رسول اللّه ﷺ .. وأمانة البناء..
وفهم خديجة

« ٥ »

ذو البصيرة المتأمل فيما كان عليه رسولنا المصطفى عليه الصلاة والسلام من الخلق العظيم وهو يبلغ الرسالة، ويؤدي أمانة البناء المنشود في نور قوله تعالى:﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾[الجمعة:٢] ويعمل جاهداً على تنمية الطاقات الفاعلة، والإحساس بعظم المسؤولية عند الإنسان المسلم ـ على ثقل ما يحمِّله ذلك من أعباء ـ.

المتأمل في ذلك، مع ملاحظة الأبعاد الشاملة التي كشفت عنها زوجه خديجة رضي اللّه عنها في صفاته الخلقية عليه الصلاة والسلام، وما صدر عن عائشة رضي اللّه عنها من تعريفٍ لخلقه صلى اللّه وسلم وبارك عليه بأنه القرآن، يتبيَّن بالغ الحكمة الإلهية في اصطفائه للرسالة الخاتمة، وائتمانه على بناء الإنسان والحياة وفق هذه الرسالة التي بعث بها للناس كافة بشيراً ونذيراً.

وهي قضية كبرى تأتي مصداقاً لما قرره الكتاب العزيز بأن اللّه تعالى أعلم حيث يجعل رسالته؛ ذلكم ما جاء في الآية الرابعة والعشرين بعد المائة من سورة الأنعام، من قول اللّه جل ثناؤه: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

فاللّه سبحانه هو الذي يعلم الموضع الصالح لوضع رسالته فيه، وهؤلاء المكذبون ليسوا أهلاً لها، كائنة ما كانت دعاواهم، والمقاييس التي يقيسون بها الأمور!!

لقد كان الجاحدون لرسالة الهدى التي جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام من عند ربه، إذا جاءتهم آية ـ حجة ـ من اللّه وبرهان قاطع على نبوته صلوات اللّه وسلامه عليه، قالوا: لن نؤمن حتى نُعطى مثل ما أعطي رسل اللّه، فتأتينا الملائكة من عند اللّه بالرسالة كما تأتي إلى الرسل، وتكون لنا المعجزات الباهرات، كما قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [٢١-٢٣].

على هذه الشاكلة كان استقبال المشركين العتاة للحقيقة في رسالة محمد ﷺ التي ملأت بضيائها السهل والجبل والبطاح، وكان برهانها قوة النفاذ كلها، والمضاء المشرق كله؛ لأنهم ينظرون إلى ما دعوا إليه من خلال نفوسهم وأهوائهم، ورغبتهم في الزعامة والتعالي من أي طريق..

فمرة﴿ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾ ومرة أخرى: ﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ وثالثة:﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف:٣١].

وجاء الجواب الحاسم الذي يكشف عن علم اللّه المحيط، وحكمته البالغة في اصطفائه لمن يصطفي من عباده كي يحمل الأمانة، فقال تعالى كما رأينا في سورة الأنعام ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

فهو ـ جل شأنه ـ أعلم حيث يضع رسالته، ومن يصطفيه لذلك، وإليه الخيار سبحانه وحده، في ذلك؛ لا لمن أرسل الرسول إليهم؛ لأنه هو الخالق الحكيم، وهو العليم بما فيه صلاح خلقه، وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

ومن ثَمَّ: فإن العاقل المتبصِّر في تلكم المسؤوليات الجسام التي ألقيت على كاهل النبي الأمي ﷺ يوم عهد إليه بالرسالة، تبهره تلك الحكمة الإلهية البالغة في اختياره عليه الصلاة والسلام لحمل تلك الرسالة وهو أمي من أولئك الأميين، وائتمانه على ما يوجبه ذلك، من بناء الإنسان على هديها بناءً يمكنه من تحقيق عبودية اللّه في الأرض ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ [الذاريات:٥٦-٥٧] ناهيك عن الإفادة الموضوعية مما سخراللّه في هذا الكون العريض، وجاءت المنجزات العلمية الهائلة لتزيد المؤمن يقيناً بهذا الذي نلمح إليه.

وذلك في أحد وجهيه: نعمة جُلَّى أنعم اللّه بها على الأمة المحمدية، وفي وجهه الآخر: حجة قائمة على تلك الأمة أنه لا سبيل إلى التحويل الصحيح إلى ما هو الأفضل والأقوم، والتغيير الذي يعيد النعم التي حجبت بسبب تغيير ما في الأنفس، ومنها القدرة على إنشاء واقع جديد تحكمه شريعة اللّه وتجد الأمة فيه ذاتها على الصعيدين الداخلي والعالمي، وتحظى بمرضاة اللّه...

نعم إنها الحجة القائمة على أنه لا سبيل إلى ذلك كله إلا بالعودة إلى منهج البناء الذي مارسته يد محمد ﷺ الصناع، وقد اختاره اللّه لهذا الأمر الجلل، فأدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح للأمة، وجاهد في اللّه حق جهاده حتى أتاه اليقين، وما أكثر ما تقع عليه في سيرته البناءة عليه الصلاة والسلام مما يزيدك يقيناً على يقين بصدق قوله تعالى:﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

* * *

الأخلاق وأهلية الرسالة.. والبناء في مواجهة الجاهلية

في نظرة فاحصة إلى ما يرى الناقد البصير من التواؤم الواضح كل الوضوح بين ما كان عليه رسول ﷺ من تميُّز في مكارم الأخلاق، ومن أهلية لحمل الرسالة الخاتمة كما اقتضت حكمة اللّه ـ وهو سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته ـ وبين التبعات التي حُمِّلها، فكان كفاءها القادر ـ بعون اللّه ـ على حملها كما كان مراداً لها أن تُحمل... في نظرة فاحصة إلى ذلك نشهد مرة أخرى ما وقفنا عليه المعلم القرآني من ذلك القبس المنير الذي أشرق به عطاء الآية الرابعة والعشرين بعد المائة في سورة الأنعام من قول اللّه تبارك وتعالى:﴿ **وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾** ﴾.

فالواقع أن الآية الكريمة ـ كما كشفت عن صورة من صور المكر الجاهلي التي عمد إليها المشركون، هروباً من الإيمان بما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام - تكشف عن ذلك العوج الذي اتسم به سلوكهم - مع دعاواهم العريضة في الفهم والتقدير ـ يوم لم يستعملوا عقولهم نشداناً للحق؛ فيقابلوا الحجة القاطعة بالحجة القاطعة مثلها ـ أن لو كان عندهم ذلك ـ ويخضعوا للحقيقة التي قام عليها البرهان، زاعمين أن لديهم الحجة التي تغلب دعوى محمد عليه الصلاة والسلام، وهي في الحقيقة حجة داحضة كما جاء النص على ذلك في القرآن الكريم، حيث قال تعالى في سورة الشورى: ﴿ **الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾** ﴾ [الشورى:١٦].

هكذا تأتيهم الحجة القاطعة للشك، والبرهان الساطع سطوع الشمس في رابعة النهار، على أن محمد بن عبدالله الذي هو من ذؤابة الشرف فيهم، وما عرفوه إلا بالأمانة والصدق والاستقامة، حتى كان مضرب المثل عندهم في ذلك.. فيفرون من هذا كله إلى شرط غريب عجيب يشترطونه لإيمانهم، وهو أن يؤتوا مثل ما أوتيَ رسُلُ الله ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾.

وقد سمى الله كفرهم وعدوانهم على الحقيقة إجراماً، وتوعدهم على ذلك بالذلة الدائمة في الدنيا وعذاب شديد يوم القيامة، وذلكم ما ختمت به الآية المومى إليها من قوله تعالى :﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

فكما أنهم استكبروا عن الحق، وجحدوا الآية الدالة عليه ماكرين، أعقبهم ذلك ذلاً يوم لا ينفع مال ولا بنون جزاء استكبارهم وعتوهم في الدنيا، كما قال تعالى في سورة «غافر»: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[غافر:٦٠].

ولعلنا لا نبعد النجعة، إن نحن ذهبنا إلى أن عطاء المعلم القرآني في الوجه الآخر من دلالة الآية، وهو فضح استكبارهم عن الحق، وعدم استخدام عقولهم في الانصراف عن سلطان الهوى والانصياع إلى الحجة والبرهان.. لعلنا لا نبعد النجعة إن نحن ذهبنا إلى أن القرآن الكريم قد رأى في ذلك لوناً من ألوان الهدم، والتسبب بضياع أنفسهم ــ ومن وراء ذلك الأسرة والمجتمع ــ دونما إحساس بأثارة من المسؤولية، وما هو من مقتضيات الحق وإنسانية الإنسان!

يستأنس لذلك بما جاء في الآيتين السابقتين للآية التي نسعد باصطحابها من سورة الأنعام، وهما قول الله جل ثناؤه بدءاً من الآية الثانية والعشرين بعد المائة: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

وفي تقرير هذه الحقيقة المتعلقة بهؤلاء الضالين الذين أهملوا العقل وركبوا متن الهوى والجهالة الجهلاء، وتولوا عن الرسالة الهادية وهم معرضون...

في تقرير هذه الحقيقة على هذه الصورة الحازمة الجازمة تنبيه للمؤمنين في كل زمان وضمن أية ظروف وملابسات أن يكونوا على المنهج السليم، ثقةً بما أكرموا به من رسالة الإسلام، وسيراً مع سنن اللّه التي لا تتخلَّف، وانصياعاً للحق، وتقديراً للحجة القائمة عليه، في استخدام صحيح للعقل، بعيداً عن سلطان الشهوة والهوى، ولكل ما وهب اللّه الإنسان من وسائل المعرفة والحكم على الأشياء.

والمرحلة التي تنتظر جيل التغيير لا يملؤها بمقومات القوة والاستمرار في نور الرسالة الخاتمة: إلا تلك الاستنارة بالمنهج الرباني الذي أنزل الناس منازلهم، فدلَّ على الطريق، وكشف عما يكون العاقبة لكل من البناة العاملين، والهدامين المعوِّقين والمثبطين، كلٌ بما هو النتيجة العادلة لسلوكه وتعامله مع الحق وسنن اللّه في هذا الوجود.

* * *

مهام الرسالة.. والبناء
فاعلية الفرد والجماعة..
واللغة المناسبة في المواجهة

كلما استضاءت في نفس المؤمن ذي البصيرة والنفاذ أبعاد المهام التي حمل أعباءها الرسول عليه الصلاة والسلام ـ وهو على رأس الأربعين ـ وحوَّل القيم النابعة منها ـ وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب ـ إلى وجود عملي تنطق به حركة الإنسان والحياة، ويدل عليه أوضح دلالة، ما شهد التاريخ من منجزات رفيعة المستوى في دنيا الاستقامة والكمال عبر العصور...

كلما استضاء ذلك في تلك النفس المبصرة مصحوباً باستنارة العقل وصفاء القلب استبانت في ظل ذلك ـ أكثر وأكثر ـ لمحات من حكمة اللّه العليم الحكيم، في اختيار محمد بن عبد اللّه العربي الهاشمي، للرسالة الخاتمة، التي شاء اللّه أن تكون للناس كافة على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأجناسهم ومواقعهم ومعهم الجن، وائتمانه على بناء الإنسان المعدِّ لعمارة الأرض كما ينبغي، ذاك الذي يبتغي فيما آتاه اللّه الدار الآخرة، ولا ينسى نصيبه من الدنيا، في أهلية لملء ميادين الحياة بشتى شعبها ومضامينها وألوانها، ما كان من ذلك في عالم العقيدة والتشريع، أو الاقتصاد والسياسة والثقافة والاجتماع، على هدي الكلمة الطيبة أول ركن من أركان الإسلام وهي «شهادة أن لا إله إلا االلّه وأن محمداً رسول اللّه».

تفرض هذه الكلمات نفسها ـ بعد الذي رأينا فيما سبق من القول من قبسات الهدى فيما تنزل به القرآن – في شأن واحدة من ترهات المشركين التي تنشأ – من اضطراب المعايير في أمر رسالة السماء أين ستجعل ذلكم قول اللّه جل شأنه في الآيتين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين بعد المائة من سورة «الأنعام»: ﴿وَكَذَلِكَ

جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ .

لقد كانت هذه واحدة من صور المواجهة بين الحق والباطل في تلك الحقبة، يهدف الجاحدون من ورائها إلى البعد عن ساحة الاستجابة لرسول اللّه ﷺ فيما يدعوهم إليه عن طريق هذا المكر، وهو تعليق إيمانهم على حصول تنزُّلٍ عليهم كالتنزل الذي يكون على الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ فإن لم يحصل ذلك ـ وهو قطعاً غير حاصل ـ كان هذا الأمر مسوغاً لجحدهم الحق وعدم استجابتهم لكلمة الهداية يدعوهم إليها الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام.

لقد سلكوا هذا المسلك الماكر الذي آذن القرآن بأنه إجرام، وما دروا أنهم بذلك يجنون على أنفسهم في العاجلة والآجلة، وعلى المجتمع الذي ينتمون إليه، وأن استكبارهم عن الإيمان، وتجاوزهم الحدود إلى التدخل في معايير رسالة السماء أين توضع،مكرٌ سوف يؤول بهم إلى الوقوع في حمأة الصغار، والذلة الدائمة، والعذاب الشديد والعياذ باللّه ..

وذلكم جزاء المجرمين الجناة الذين لا يحسنون التفكير ولا العمل، ويسوؤهم أن يحسن غيرهم العمل، كما يسوؤهم أن يخاطبوا بكلمة الإحسان والخير، بل يقفون وقفة العناد والفتنة في وجه من أراد أن يسلك بهم طريق البناء القويم، الطريق التي تخرجهم من ظلمات الجاهلية والخرافة، إلى نور التوحيد والتفكير السليم، وتستنقذهم مما هم فيه من البلاء الشامل وقد سقطوا في وهدة الوثنية والضياع.

وجاء الرد الحاسم على ذلك المكر البارد الأبله، ليعقل من عنده أهلية التعقل والاستبصار، بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ .

وما أسوأها عاقبة، وأشده مصيراً! أن يكون جزاء المكر لأولئك المتسربلين سربال الغواية والصد عن سبيل اللّه؛ صغار عند اللّه وعذاب شديد.

وبعد، فهكذا يهدينا المعلم القرآني في سورة مكية تتنزل في حقبة مبكرة من عمر الدعوة هي سورة الأنعام إلى أن رسالة البناء الذي هو ترجمان الهداية على صعيد الحركة والواقع، ما بدٌّ من أن يُعَدَّ لها الإعداد الذي يستوعب مقومات العطاء الخيِّر والاستمرار فيه..

فالتبعات الجسام ـ وهي من طبيعة الرسالة الخاتمة في خطابها الشامل للناس أجمعين ـ والتي أوحي بها إلى رسولنا عليه الصلاة والسلام على فترة من الرسل، كان هو عليه الصلاة والسلام كفاءها بعظمة لا تدانى، وسراجاً منيراً للبشرية جمعاء.

وهكذا تشرق صنوف الخير العميم تبعاً لذلك، يقوم بها الفرد المتصل قلبه باللّه والمجتمع الأمثل القدوة، والأمة التي أريد لها أن تكون ـ بالإسلام ـ خير أمة أخرجت للناس.

ومن عطاء المعلم القرآني في تلكما الآيتين الكريمتين من سورة الأنعام، التوجيه إلى أنه ـ مع الطريق البانية والمسلك الإيجابي في تنمية فاعلية الفرد والجماعة وقابليتهما للنهوض الحضاري ـ ما بدٌّ من التصدي باللغة المناسبة لأولئك المناوئين الذين همهم أن يهدموا ويظاهروا على من يمارس إحكام البناء، بل يقفون حجر عثرة ظالمة في وجه دعوة الحق وأهلها، وهي الدعوة التي تهدف إلى تحقيق ما فيه سعادة الفرد والمجتمع والأمة.

وفيما رأينا من الكلمات الهاديات درس عظيم وأي درس، درس توحي به التعرية لموقفهم، وتوعدهم بالعقوبة جزاء بما كانوا يمكرون.

وأية عقوبة هي؟ إنها الذلة الدائمة وعدم الاستقرار في الدنيا والعذاب الشديد يوم الدين.

أيها الرواد على طريق البناء في مختلف صوره وميادينه! جددوا الصلة الواعية الأمينة بمعالم الكتاب العزيز، وببيانها من سنة الرسول الأمين عليه الصلاة والسلام؛ إنكم إن فعلتم ذلك ـ بإخلاص نية وصدق عزيمة ـ على الطريق الصاعدة في التاريخ: جاءكم نصر اللّه، واللّه لا يخلف الميعاد.

أخلاق النبوة.. وتحديات الأهواء

البراهين التي قامت على أن محمد بن عبد اللّه رسولٌ يوحى إليه، وأن الكلام الذي يبلغه الناس ـ على أنه القرآن ـ هو كلام اللّه تعالى.. هذه البراهين كانت كثيرة وفيرة اهتدى إليها العقل السليم عند أولئك الذين تجردوا عن سلطان الهوى والتقليد الأعمى للآباء والأجداد؛ فقدروا الحقيقة حق قدرها، ونظروا في أخلاقه عليه الصلاة والسلام قبل البعثة، وبعدها، ونفذوا إلى ساحة الضياء التي تذوقوا معها أن القرآن الكريم كلام معجز يستحيل أن يكون من عند غيراللّه.

وقضية الأخلاق التي نشير إليها كانت في الحقيقة فيصلاً بين أولئك الذين خضعوا لتزيين الشياطين وتسويلات النفوس، وبين الذين تأملوا وتدبروا وعملوا على أن يكونوا بمنجاة من السقوط في حمأة التناقض مع أنفسهم، فلا يعتقدون أنه صادق أمين بالأمس، كاذب مفترٍ اليوم.

وبذلك جاءت الآيات تحرك العقول لتقول كلمتها بتجرد وترفّعٍ عن السطحية والتناقض وانصياع للحجة والبرهان.

فالذي يحمل الرسالة «صادق أمين» وهو من ذؤابتهم، وما عرفوه قبل البعثة إلا بمكارم الأخلاق، والكلام الذي يتنزل عليه عجزوا - وهم أرباب البلاغة - أن يأتوا بشيء من مثله مع كونه بلسان عربي مبين.

ها نحن أولاء نقرأ في سورة يونس ـ وهي سورة مكية ـ ﴿**وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾**﴾[يونس:٣٧- ٣٩].